مكونات الإنسان من منظور إسلامي

د. فاطمة أحمد عميص

Fatima.a.omais@gmail.com

مقدمة:

إذا كان المهتمون بقضايا الإنسان عامة قد أطلقوا على العقود الأخيرة من القرن الماضي وصف "عصر القلق"، وقد استحقت تلك العقود هذا الوصف بجدارة، فإن بداية هذا القرن يصدق عليها وصف " عصر ما بعد القلق".

فالقلق والخوف من توقع الحروب والنزاعات وما يترتب عليها من قتل وتهجير وتدمير، لم يبق في دائرة القلق فقط، فها هي الحروب والنزاعات أصبحت واقعاً على الأرض.

وإن كان القلق من استنزاف خيرات الأرض والبحر والسماء وبطرق جائرة، الأمر الذي يرتد في النهاية وبالاً على الإنسان، إن كان في أمنه أو صحته...، فهذا ما نشاهده أو نسمع عنه يومياً، وكأن أهل هذا العصر هم آخر الخليقة ولن يأتي بعدهم غيرهم.

وإن كان القلق من اضطراب العلاقات الاجتماعية وتفكك الأسر، فالمتابع أو المراقب لحالات الطلاق والتي هي في ازدياد، يوقن أن الأمر تخطى حالة القلق ليصبح واقعاً ملموساً.

وأمام هذا الفساد والإفساد في البر والبحر والجو والذي هو نتيجة حتمية لما كسبت أيدي الناس مصداقاً لقوله تعالى:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّوَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِلِيُذِيقَهُمْبَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١)، يبحث المصلحون أكان داخل كل قطر أو على الصعيد العالمي كل من موقعه عن حلول لهذه المشاكل مجتمعة أو منفردة؛ لكن أي بحث لا يبدأ من الإنسان سيكون ناقصاً وغالباً ما يؤدي إلى الفشل.

فالحروب والنزاعات الدائرة سواء كان سببها التنازع على خيرات الأرض أو السماء، أو ظلم حاكم لرعيته، سببها الإنسان، فالحاكم إنسان، والمنازع على المصالح والثروات إنسان.
وعلى صعيد المشكلات الأسرية، وسواء كان المسبب لهذه المشكلات الزوج أو الزوجة أو الأولاد، فإن كل منهم إنسان.
ولو أردنا أن نعدد المظاهر التي تجعل من هذا العصر "عصر ما بعد القلق" لطالت اللائحة، ولكن وراء كل مظهر من مظاهر القلق يجب أن نبحث عن الإنسان أولاً.
وإذا ما اعتمدنا السنة والقانون الرباني الثابت لتغيير الأوضاع التي يعيشها الإنسان في هذا العصر، المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِيَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَاللَّهُبِقَوْمٍسُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد:١١)، فإن تغيير ما بالأنفس يكون إما من خلال التربية و التنشئة أو الإرشاد أو العلاج إذا تطلب الأمر ذلك.

وكل ذلك يستدعي وبالمقام الأول دراسة هذا الإنسان، ومعرفة مما يتكون، وما هي مراحل تكوينه، وما هو أصله، وما هي غاية وجوده، وما هو مصيره، ...

والعلم الذي يبحث في طبيعة نفس الإنسان ومشاعرها ومكوناتها، والذي يدرس أيضاً السلوك البشري واسبابه ودوافعه، هو ذلك الفرع من العلم الذي يسمى علم النفس. ودراسة النفس قديمة جداً، مرت بمراحل متعددة، فمن مرحلة الفكر اليوناني إلى مرحلة الفكر الإسلامي، إلى مرحلة النهضة العلمية الغربية، وأخيراً مرحلة علم النفس المعاصر.

ولكن علم النفس القائم اليوم، والذي يُدرس – على الأعم الأغلب – في جامعات دول البلاد العربية والإسلامية، لا يستطيع إعطاء معرفة شافية ويقينية عن الإنسان، لأن اجتهادات العقل الإنساني التي توصلت إلى معرفة الحقائق العلمية للظواهر المادية والطبيعية، قاصرة عن معرفة أحوال النفس والسلوك الإنساني، فإن الفرضيات التي تفسر السلوك لم تصل إلى مرتبة الحقائق العلمية، وإنما توقفت عند عتبة النظريات.

فعلم النفس الغربي المعاصر مبني على نظريات وضعية، مستندة على أسس فلسفية تحدد نظرة كل منها إلى الإنسان وشخصيته، وإلى المعايير التي تحدد السواء والانحراف في شخصيته أو صحة نفسه ومرضها. فمن أصحاب هذه النظريات من اختبر فروضه على الحيوان قبل أن يتحفنا بنظريته، ومنهم من لم يكلف نفسه حتى إخضاعها للاختبار لمعرفة مدى صدقها من عدمه.

لهذا كان لا بد من الرجوع في معرفة النفس والسلوك الإنساني إلى خالق النفس وموجد الإنسان، القائل سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَوَهُوَاللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤)، وإلى ما أنتجه فكر علماء الأمة الإسلامية وباحثيها في ضوء مبادئ الإسلام وأحكامه وضوابطه، مع الاستفادة مما توصل إليه علماء النفس في الغرب إذا كان لا يتناقض أو يتعارض مع ديننا عقيدة وشريعة.

وإذا كانت بعض النظريات الغربية لعلم النفس قد اجتزأت من الإنسان عقله، وبعضها اجتزأ منه الإرادة ، وبعضها الآخر الروح، فإن تصور الإسلام للإنسان قدم صورة متكاملة له، لأنها من عند من خلق الإنسان سبحانه وتعالى. ومكونات الإنسان من منظور إسلامي هي:

أولاً: الجسم

الجسم بأجهزته المختلفة والتي يتفق عليها علماء الطب في العالم أجمع، وأجهزة الجسم عديدة، وهي: الهيكل العظمي، الجهاز العضلي(الخارجي والداخلي)، الجهاز البولي والتناسلي، جهاز التنفس، جهاز الهضم، الجهاز الدموي(القلب والشرايين والأوردة)، الحواس الخمس وأعضاؤها، الجهاز العصبي، الغدد الصماء، جهاز المناعة.

هذا فيما يخص العنصر المحسوس من عناصر تكوين الإنسان، أما العناصر الأخرى فلا يمكن تعريفها بالسهولة التي كانت لتعريف الجسم، وهذه العناصر هي: النفس، والروح، والعقل والقلب. وجميع العناصر المكونة للإنسان مترابطة متداخلة تعمل ككل واحد، ولا يعمل عنصر واحد من هذه العناصر بمفرده أبداً.

ثانياً – النفس.

النفس من الألفاظ المشتركة التي جاءت في القرآن الكريم والتي يعرف المقصود منها في كل موضع حسب سياقها في الآية. وقد وردت كلمة النفس في القرآن الكريم بالمعاني التالية:

١ – النفس: ذات الشيء وحقيقته، وهي الشيء الذي يشير إليه كل واحد بقوله: "أنا"، وهي مجردة عن المادة، قائمة بنفسها، وهي وإن كانت سراً غامضاً لا يصل إلى معرفة ماهيتها العقل الإنساني، إلا أن مظاهرها تبدو جلية في تدبير شؤون حياة الإنسان من التفكير والإرادة، والعاطفة... ونفس الإنسان بهذا تعني كل الإنسان(الجسم والروح).

٢ – النفس: الروح التي بها الحياة، فإذا فارقته حل به الموت، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الأنعام:٩٣). والروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، قال تعالى:﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر:٤٢)، والأنفس هنا هي الأرواح قطعاً[١].

٣ – والنفس: معنى في الإنسان يوجهه إلى الخير أو إلى الشر، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (المائدة:٣٠).

٤ – والنفس: مكان الضمير، وبهذا المعنى تضاف لله وللإنسان، كما جاء في الآية: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران:٢٨).

٥ – والنفس بصيغة الجمع لتبادل الشيء، كأن تقول أكرموا أنفسكم والقصد ليكرم أحدكم الآخر،﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:٥٤)[٢].

٦ – والنفس للرجل والمرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(الروم:٢١).

٧ – والنفس شخص معين كآدم عليه السلام،﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١).

والنفس لا تنعدم وإنما تنتقل من دار إلى دار:

الدار الأولى: في بطن الأم، وهناك الضيق والظلمات الثلاث.

الدار الثانية: هي الحياة الدنيا التي نشأت فيها وعملت واكتسبت فيها الخير أو الشر.

الدار الثالثة: دار البرزخ، وهي أوسع من هذه الدار وأعظم.

الدار الرابعة: دار القرار أو دار الخلود، وهي الجنة أو النار.

والنفس لها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى[٣].

صفات النفس

النفس واحدة؛ ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى: سوية(ملهمة)، أمارة بالسوء، لوامة، مطمئنة.

أ – النفس عندما تكون سوية(ملهمة)

قال تعالى:﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٧) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) (الشمس:٧–٨)، في هذه الآية صفتان للنفس، سوية وملهمة.

يقول سيد قطب– رحمه الله – عند تفسيره للآية:" إنها تبرز نظرة الإسلام إلى الإنسان، أنه مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه"[٤].

وعن الصفة الثانية من الآية يقول الإمام الطبري– رحمه الله – :" بيَّن لها ما ينبغي أن تأتي أو تذر من خير أو شر، أو طاعة أو معصية"[٥].

وخلاصة قول المفسرين في الإلهام المذكور في الآية أنه الهام الفطرة، أي عرفها ذلك بالفطرة، وبين ذلك لها بالوحي؛ فالنفس في أول أحوالها نفس سوية، ألهمت طريق الخير وطريق الشر.

ب – النفس عندما تكون أمارة بالسوء:

قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف:٥٣)، وكان رسول الله ρ يعلم أصحابه خطبة الحاجة فيقول:" «الْحَمْدُ لله نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعوذُ بِالله مِنْ شُرورِ أَنْفُسِنا ، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ،..."[٦]. فالنفس الأمارة هي المقصودة في الآية والحديث، وهي المذمومة لأنها تأمر بكل شر، ولا يستطيع أحد أن يتخلص من شر نفسه إلا بتوفيق الله تعالى، فإذا ترك الله سبحانه وتعالى الإنسان لنفسه هلك من شرها.

والنفس الأمارة لها صديق وقرين هو الشيطان، "يعدها ويمنيها، ويقذف فيها الباطل، ويأمرها بالسوء، ويزينه لها، ويطيل في الأمل، ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأماني الكاذبة، والشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها..."[٧].

قال رسول الله ρ:" إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بابنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الله فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرجيم."[٨].

ج – النفس اللوامة وأحوالها:

وهي نوعان: اللوامة الملومة: هي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته، واللوامة غير الملومة: وهي التي تلوم صاحبها على تقصيره، وهي الخطوة المتقدمة في النقد الذاتي ومحاولة تقويم الغلط في التصرف والمنهج[٩].

د – النفس عندما تكون مطمئنة:

وهي أعلى درجة للنفس، وأصحابها هم المسمون في القرآن بالسابقين المقربين،﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)**أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(الواقعة:١٠–١١).

وتسمى مطمئنة لاطمئنانها إلى ربها بالعبودية والمحبة والخشية، ولا يمكن أن تصل النفس إلى هذه الدرجة إلا بذكر الله تعالى،﴿الَّذِينَ آمَنُواوَتَطْمَئِنُّقُلُوبُهُمْبِذِكْرِاللَّهِتَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨)، وبطمأنينة النفس يزول القلق والانزعاج والاضطراب عنها.

والنفس باقية لا تموت، ولا تنعدم ولا تضمحل، ولكنها ذائقة الموت بمفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإنها باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب في دار الخلود، قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَالْأُولَىٰۖوَوَقَاهُمْعَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (الدخان:٥٦).

ثالثاً: الروح

" الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيت، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك الجسم اللطيف، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار؛ فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح"[١٠].

وتسمية الروح لا تطلق على البدن، لا بانفراده ولا مع النفس[١١]، ولم يتكرر لفظ الروح في القرآن إلا قليلا، ولكن استعماله كان متنوعاً، فقد جاء للدلالة على الوحي، أو القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها الله تعالى من يشاء من عباده المؤمنين، أو جبريل υ، أو المسيح ابن مريم υ.

أما الروح التي سأل عنها اليهود رسول الله(صلع)، فقد روى مسلم في صحيحه أن اليهود سألوا رسول الله ρ عن الروح فأجاب بعد نزول الوحي بالآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥)[١٢].

يقول الإمام النووي – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث:"... وليس في الآية دليل على أنها لا تعلم، ولا أن النبي (صلع) لم يكن يعلمها، وإنما أجاب بما في الآية الكريمة لأنه كان عندهم أنه إن أجاب بتفسير الروح فليس بنبي"[١٣].

وعليه، فإن الروح التي سأل عنها اليهود وأُجيبوا بأنها من أمر الله، ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ:٣٨)، وأنها الروح المذكورة في قوله تعالى:﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر:٤)." أما أرواح بني آدم، فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة"[١٤].

ذكر ابن كثير في تفسيره للآية في سورة الإسراء، أن المفسرين اختلفوا في هذه الروح، فمنهم من ذهب إلى أنها أرواح بني آدم، ومنهم من قال أنها الوحي أو جبريل عليه السلام، ومنهم من ذهب إلى غير ذلك[١٥]. ويؤكد ابن القيم أن أرواح بني آدم، لم تقع تسميتها في القرآن الكريم إلا بالنفس[١٦].

النفس والروح

اختلف الناس في النفس والروح، هل هما متغايران، أم أنهما شيء واحد؟ تطلق النفس على أمور، والروح على أمور أخرى، "فيتحد مدلولهما تارة، ويختلف تارة أخرى. فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالباً ما تسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها"[١٧].

ويضيف الشيخ محمد متولي شعراوي– رحمه الله – مبينا أن" النفس هي التقاء الروح بالمادة، فإذا التقت الروح بالمادة، فهذه هي النفس؛ ولذلك فإن التكليف للنفس الإنسانية، التكليف ليس للروح وحدها، ولا للمادة وحدها، ولكن للنفس، فحين تلتقي الروح بالمادة تنشأ الحياة الأرضية، أو تنشأ النفس"[١٨].

وعليه، فإن الفرق بين النفس والروح هو فرق في الصفات وليس فرقاً في الذات، ويجتمعان في كونهما مخلوقين غير ماديين.

رابعاً: العقل

إن البحث في كنه العقل وماهيته منذ الفلسفة اليونانية إلى اليوم لم يأت بفائدة على واقع المعرفة الإنسانية، الأمر الذي حوَّل البحث في العقل من أنه جوهر وجودي ضمن بيئة العالم إلى تفسيره على أنه قوة للمعرفة والإدراك، ويظهر هذا جلياً عند العلماء المسلمين بشكل مخصوص.

عرَّف الأصفهاني– رحمه الله – العقل قائلاً: "العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة"[١٩].

ويرى الماوردي– رحمه الله – أن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية، وقسم العقل قسمين:

العقل الغريزي: يقوم بإدراك كل ما يقع عن طريق الحواس، مثل المرئيات المدركة بالنظر بالإضافة إلى ما كان مبتدأ في النفوس، ويقصد بها المسلمات كالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم، ومن المحال اجتماع الضدين. وهو ذكاء بالطبع، أي غريزي فطري، ويقصد به الاستعدادات في مفهومنا المعاصر.

العقل المكتسب: وهو نتيجة العقل الغريزي لأنه ينمو إذا استعمل، وينقص إذا أهمل، ونماؤه من جهتين: أحدهما كثرة استعماله وكثرة تجاربه، والأخرى فرط الذكاء. فإذا امتزج بالعقل الغريزي صارت نتيجتهما نوع العقل المكتسب. وهو ذكاء الخبرة، أي اكتساباً من البيئة التي يعيشها[٢٠].

ويتبين دور العقل من خلال دراسة مدلول مادة (ع ق ل) في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومرادفاتها في القرآن(اللب، الحلم، الحجر، النهى)، وهو آلة لإدراك العلم، والعلم الذي يستفاد بالعقل، وهو الذي يمسك صاحبه عن الوقوع في المهالك، والوعي بعد المرض والغيبوبة، الحافظة والذاكرة، الإدراك والحفظ والتذكر والتدبر والحكمة، وهو مناط المسؤولية والتكليف، وهو الرسوخ في العلم، والتفهم العميق الواعي، وهو الاستفادة من تجارب الغير، والحلم والأناة والتبصر، والحجر والمنع عن تعاطي ما يضر بصاحبه، والنهي عن القبائح.

يتضح من خلال ما تقدم أهمية دور العقل، لأنه هو الذي يوجه غيره من خلال الحقائق التي يتوصل إليها. ولكن العقل لا يعمل في الإنسان بمفرده، ولكنه يخضع لضغوط المصالح الشخصية، وهذا ما أطلق عليه الماوردي مصطلح الهوى المناقض للعقل، وذلك حين قال:" والهوى عن الخير صاد، وللعقل مضاد؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأعمال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوكا"، ويشير إلى قول عبد الله بن عباسτ: "أن الهوى إله يعبد من دون الله، ثم تلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَإِلٰهَهُهَوَاهُوَأَضَلَّهُاللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍوَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِوَقَلْبِهِوَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِغِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِاللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:٢٣)[٢١].

وعنده أيضاً أن العقل رقيب مجاهد للهوى، يلاحظ عثرته ويدفع بادر سطوته، ثم يفرق – رحمه الله– بين الهوى والشهوة رغم اجتماعهما في العلة والمعلول، واتفاقهما في الدلالة والمدلول، فالهوى عنده مختص بالآراء والمعتقدات، والشهوة مختصة بالملذات، فصارت الشهوة من نتاج الهوى[٢٢].

لكن كيف ينفذ الهوى أحكامه على العقل؟

يرى الماوردي أن الهوى ينفذ أحكامه على العقل من خلال طريقتين:

الأولى: قوة سلطان الهوى، فيكل العقل عن دفعه مع علمه بضرر ذلك وقبحه، وهذا يكون في الأحداث والشباب أغلب، لقوة شهواتهم، وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم. وحسم ذلك يكون بأن يتدخل العقل فيُشعر النفس العاصية بما في عواقب الهوى من شدة الضرر.

الثانية: فهو أن يخفي الهوى مكره حتى تتموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسناً، والضرر نافعاً، وهي ما يطلق عليها علم النفس الحديث الحيل العقلية الدفاعية، وهذا يدعو إليه أحد سببين:

أ – إما أن يكون للنفس ميل إلى ذلك الشيء فيختفي عنها القبيح لحسن ظنها، وتتصوره حسناً لشدة ميلها.

ب – استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه، واتباع الراحة في اتباع ما يسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه وأحمد حاليه.

وحسم الأول: أن يجعل الإنسان فكر قلبه(العقل) حكماً على نظر عينيه، فإن العين رائدة الشهوة، والشهوة من دواعي الهوى، والقلب رائد الحق والحق من دواعي العقل.

وحسم السبب الثاني: إذا ما أشكل على الإنسان أمران اجتنب أحبهما إليه، وترك أسهلهما عليه[٢٣].

خامساً: القلب

ورد لفظ (القلب) في كتاب الله اسم جنس – مفرداً ومجموعاً؛ وذلك خلاف الأمر مع لفظ (العقل) الذي لم يرد في حالة الإفراد. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنه ليس هناك في جسم الإنسان شيء مجسم اسمه(العقل) لكن هناك شيء اسمه (القلب)، وهو تلك المضغة القائمة في الصدر.

عند دراسة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحدثت عن القلب، يتبين أن بعضها تتحدث عن صورة من صور العقل، وآيات أخرى تتحدث عن العاطفة والأحاسيس الوجدانية، وآية ثالثة تجمع بين الجانب العاطفي والجانب العقلي.

وتوضح الآيات القرآنية أن القلب هو محل: الإيمان، والتقوى، والخير، والإخلاص، وأنه محل الإدراك والمعرفة، والانفعالات(الرعب، الوجل، الخوف، الاشمئزاز، الغيظ، الغل والحسرة..)، وأضداد العلم محلها في القلب أيضا مثل: الختم، والران، والإقفال، والغفلة، والعمى، والشك.. والقلب له مرادفات وردت في القرآن الكريم، منها: الصدر والفؤاد.

والقلب من حيث الصحة والمرض أنواع، فهناك:

أ – القلب السليم: قال تعالى:﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨)**إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89) ﴾ (الشعراء:٨٧–٨٩). وصفه ابن قيم الجوزية قائلاً:" سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته.. والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر سليماً من إرادته"(٢٤).

ب – القلب المريض: عرَّفه ابن تيمية– رحمه الله – بأنه " نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار.. والمرض دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض وحياة وشفاء"(٢٥).

ج – القلب الميت: هو قلب الكافر المنافق نفاق عقيدة، وهو قلب لا حياة فيه(٢٦).

وعليه، فالقلب هو القائد لجميع أعضاء الجسم، وذلك لأنه محل المعارف، ومحل الإرادة المشروطة بالعلم، فهو الفاعل وهو المخاطب، وهو المثاب والمعاقب، وبصلاحه تصلح سائر أعضاء الجسم وبفساده تفسد، كما قال رسول الله ρ:" ...ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله، أَلا وهِيَ الْقَلْبُ"(٢٧).

العقل والقلب

قال تعالى:﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِفَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌيَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌيَسْمَعُونَ بِهَا ۖفَإِنَّهَا لَا تَعْمَىالْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَىالْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦)، تدل هذه الآية على أمرين اثنين: أحدهما أن العقل علم، وثانيهما أن محله القلب، فالعقل فعل من أفعال القلب.

القلب وعلم الطب الحديث.

استخدم العلماء المسلمون عبارتين تدل كل منهما على القلب:

أ – عبارة العضلة الصنوبرية، وهو مسؤول عن النشاط الفسيولوجي للجسم، ولا يصلح أمر الجسم إذا كان فيه أكثر من قلب واحد.

ب – القلب اللطيفة الربانية، وهو مسؤول عن النشاط المعنوي للإنسان، ولا يستقيم أمر هذا النشاط إذا تعددت مصادر التوجيه(٢٨).

ويعتقد البعض أن القلب المذكور في القرآن الكريم هو القلب المعنوي غير المرئي، مثله مثل النفس والروح. لكن علماء الطب الحديث، ومنذ ثمانينيات القرن الماضي(١٩٨٤)، ومنذ إجراء أول عملية زرع قلب ناجحة، لاحظوا ظاهرة غريبة عند المرضى الذين

أجريت لهم عمليات زراعة القلب، فبعد العملية لاحظ الأطباء أن هؤلاء المرضى اكتسبوا بعض صفات أصحاب القلوب الأصلية[٢٩].

قام العلماء بدراسة هذه الظاهرة على الأشخاص الذين اجروا عملية زراعة قلب صناعي، أو قلب طبيعي من إنسان لآخر، وكانت النتائج على الشكل التالي:

١ – زراعة القلب الصناعي: بيتر هوغتن(Peter Houghton)[٣٠] أجريت له عملية زرع قلب صناعي، يقول هذا المريض: إن مشاعري تغيرت بالكامل، فلم أعد أعرف كيف أشعر أو أحب، وحتى أحفادي لا أحس بهم ولا أعرف كيف أتعامل معهم. ويضيف أنه أصبح غير مبال بشيء، لا يهتم بالمال، لا يهتم بالحياة، لا يعرف لماذا يعيش، لقد فقد القدرة على الفهم أو التمييز أو المقارنة، كذلك فقد القدرة على التفكير في المستقبل، حتى أنه فقد إيمانه بالله، ولم يعد يبالي بالآخرة كما كان من قبل[٣١].

٢ – زراعة قلب طبيعي: أحصى العلماء حالة ٧٣ عملية زرع قلب طبيعي، وتتبعوا حالات هؤلاء المرضى بعد العملية، فلاحظوا انتقال صفات أصحاب القلوب الأصلية إليهم[٣٢].

لم يتوصل العلماء إلى قول الكلمة الفصل في هذا الموضوع، لكنهم وضعوا تفسيرات أولية توضح هذه الظاهرة، ومنها:

أ – وجدوا أن القلب له دماغ وجهاز عصبي داخلي خاص به، وهو يعمل بصورة مستقلة عن الدماغ الموجود في الرأس، كما بينوا أن دماغ القلب يتألف من ٤٠٠٠٠ خلية عصبية، ووجدوا أن ما نسميه العقل موجود في مركز القلب، وهو الذي يقوم بتوجيه الدماغ لأداء مهامه.

وقد أثبت فريق أبحاث في جامعة كولومبيا الأمريكية[٣٣] بعد مضي خمس سنوات من الدراسة والتحقيق، أن القلب كالدماغ له خلايا لتثبيت المعلومات، وقد طبعت هذه النظرية الهامة في مقال بعنوان " دراسة ذاكرة القلب" (Studying Heart Memory).

ب – أجرى معهد رياضيات القلب (Heart Math)العديد من التجارب، أثبت من خلالها أن القلب يبث ترددات كهرومغناطيسية تؤثر على الدماغ وتوجهه في عمله، وأنه من الممكن أن يؤثر القلب على عملية الإدراك والفهم لدى الإنسان، كما وجدوا أن دقات القلب تؤثر على الموجات التي يبثها الدماغ، وكلما زاد عدد دقات القلب، زادت الترددات التي يبثها الدماغ[٣٤].

وعليه، فإن ما نسميه "العقل" موجود في القلب، وهو الذي يقوم بتوجيه الدماغ لأداء مهامه. والله سبحانه وتعالى جعل القلب وسيلة نعقل بها، قال تعالى:﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ **(الحج:٤٦)**، حددت هذه الآية مكان القلب _ في الصدر – كي لا يظن أحد أن القلب موجود في الرأس وهو الدماغ، أو أن هناك قلباً غير القلب الذي ينبض في صدورنا. وسبحان الله القائل:﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ **(الحج:٤٦)**

سادساً: الشخصية.

استخدم علماء الفكر الإسلامي ألفاظاً دالة ومرادفة للفظ الشخصية التي تدل على ذات الإنسان، منها: النفس، الذات، الفرد، امرؤ، ابن آدم، بشر، بل وحتى القلب والروح وأحياناً القلب، وذلك لأن لفظ " الشخص" الذي اشتق منه مصطلح الشخصية لم يرد في القرآن الكريم قط.

تُعرَّف الشخصية من منظور إسلامي بأنها:" مجموعة مستقرة من الخصائص والتصرفات التي تنطلق من المكونات الروحية والعقلية والبيولوجية للإنسان، بما يجعله يفي بحاجاته الروحية والبدنية بصورة متوازنة، وتعطيه تفرده في سلوكه وتفكيره"[٣٥].

ومن هذا التعريف يمكن أن نستنتج مواضيع الدراسة في مفهوم الشخصية، والتي جاءت مجملة في التعريف أعلاه، فعبارة:

- "الخصائص والتصرفات" ترمز إلى سمات الشخصية.

- "المكونات الروحية والعقلية والبيولوجية" تعني أبعاد الشخصية.
- "الحاجات الروحية والبدنية" تشير إلى الدوافع.
- تعطيه تفرده في سلوكه وتفكيره" تشير إلى الفروق الفردية بين الأشخاص.

أ – سمات الشخصية

" السمة: السَّومة هي السمة والعلامة، والسّيما: العلامة [٣٦].

وهي "الخصائص أو الصفات التي تتميز بالثبات النسبي عند الشخص، ويمكن ملاحظتها وقياسها"[٣٧].

وصف الله تعالى في القرآن الكريم الإنسان عامة بأنه : هلوعاً، جزوعاً، منوعاً، جهولاً، ظلوماً، قتوراً، عجولاً، كنوداً، يؤوساً، كفوراً، كادحاً، شديد الحب للمال، وهذه كلها سمات في الإنسان وخصائص فطر الله الناس عليها.

ولكنه سبحانه استثنى المؤمنين بصفات معينة، فهم وإن كانوا جبلوا على هذه الصفات الإنسانية العامة، إلا أنهم استطاعوا بإرادتهم المنبثقة عن عقيدتهم وإيمانهم، أن يترفعوا على هذه الجبلة الأصلية، قال تعالى﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢)﴾ (المعارج:١٩-٢٢).

وصنف القرآن الكريم الناس على أساس العقيدة إلى ثلاثة أنماط، هي: المؤمنون، الكافرون، المنافقون. ولكل نمط من هذه الأنماط الثلاثة سماته الرئيسة العامة التي تميزه عن النمطين الآخرين، فسمات المؤمنين على سبيل المثال والتي وردت في القرآن يمكن تصنيفها في تسعة مجالات، هي: سمات تتعلق بالعقيدة، وسمات تتعلق بالعبادات، وسمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية، وأخرى تتعلق بالعلاقات الأسرية، وسمات خلقية، وسمات عقلية معرفية، وسمات انفعالية عاطفية، وسمات تتعلق بالحياة العملية المهنية. إضافة إلى السمات البدنية[٣٨].

اختار الإمام الغزالي – رحمه الله– في " إحياء علوم الدين" عشر سمات (أو صفات أو سلوك) تدل على حسن الخلق وسماها (المنجيات العشر) تقابلها (المهلكات العشر) من الطرف الآخر، وهي:

المنجيات العشر: الندم على الذنوب، الصبر على البلاء، الرضا بالعطاء، الشكر على النعماء، اعتدال الخوف والرجاء، الزهد في الدنيا، الإخلاص في الأعمال، حسن الخلق مع الخلق، حب الله تعالى، الخشوع.

أما المهلكات العشر فهي: البخل، الكبر، العجب، الرياء، الحسد، شدة الغضب، شره الطعام، شره الوقاع، حب المال، حب الجاه[٣٩]. ويرى ابن قيم الجوزية – رحمه الله – أن الأفعال تصدر عن الإرادات، وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة فيتباين الفعلان في الباطن ويشتبهان في الظاهر.. ولذلك أمثلة كثيرة منها: المدارة والمداهنة: فالأول من المطمئنة والثاني من الأمارة، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق، والتواضع والمهانة، والجود والسرف، والمهابة والكبر، والاقتصاد والشح، والاحتراز وسوء الظن.. ورقة القلب والجزع..[٤٠].

ولعل ابن القيم في هذه الفقرة الموجزة التي جمع فيها العديد من سمات الشخصية قد أبرز منهج الإسلام في دراسة الشخصية، فهو لا يأخذ السلوك الظاهر وحده في الحسبان لبيان ما إذا كانت السمة سوية أو منحرفة، وإنما يبحث عن المنطلق الذي تنطلق منه، وهو يرى أن الأفعال تصدر عن الإرادات، ويعني أن السلوك الظاهر تحكمه الإرادة وهي جانب معرفي.

إلا أن هذه الأفعال في رأيه تعود للتفاعل مع البنية السائدة أو الصفة السائدة للنفس، فإذا صدرت عن النفس الأمارة، فإن مجرى الفعل ومقصده ونتيجته تختلف عما لو صدرت عن النفس المطمئنة، وهكذا فإن الحكم على السلوك أمر يرتبط بالصفة الغالبة للنفس؛ مطمئنة أم أمارة.

ولإيضاح ذلك، يقارن ابن القيم بين رقة القلب وبين الجزع الذي قد يكون في ظاهره شبيها برقة القلب، ولكنه يصدر عن اضطراب شديد، يقول – رحمه الله –:" والفرق بين رقة القلب والجزع، أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب، يمده شدة الطمع والحرص ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدور كائن ولا بد، كان الجزع عناءً محضاً، ومصيبة ثانية، قال تعالى:﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ (الحديد:٢٢-٢٣)، فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح، ولا ينافي هذا رقة القلب فإنها ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال، والله سبحانه وتعالى إنما يرحم من عباده الرحماء"[٤١].

ب – أبعاد الشخصية:

ودراسة أبعاد الشخصية أو محدداتها هي دراسة للعوامل المؤثرة في الشخصية الإنسانية، والتي يتم من خلالها – منفردة أو مجتمعة– اختلاف السلوك الإنساني الذي يعطي لكل إنسان طابعه الخاص، فيميزه بصفاته وخصائصه وسلوكه ومعتقده واتجاهاته وميوله وعواطفه.

وأبعاد الشخصية في التصور الإسلامي هي:

الأول: البعد الروحي، والذي يتضح من خلال افتقار الإنسان لله تعالى، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر:١٥).

الثاني: بعد وراثي – بيولوجي، كالغدد الصماء والجهاز العصبي والقدرات العقلية العامة(الذكاء).

الثالث: بعد بيئي، كالبيئة الطبيعية (الجغرافية والمناخية) والبيئة الاجتماعية والنفسية.

ج – الدوافع:

يعرف العلماء الدافع بأنه :"طاقة داخل الكائن الحي إنساناً أو حيواناً تدفعه إلى القيام بسلوك معين أو نشاط معين(سواء أكان حركياً أم فكرياً أم تخيلياً أم انفعالياً أم فسيولوجياً)، تحقيقاً لهدف معين هو إشباع هذا الدافع.."[٤٢].

والدوافع متعددة ولكن يمكن حصرها ضمن ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: دافع التدين، ويضم حاجة أولية مهيمنة على جميع الحاجات؛ لأنها ضامنة لإشباعها جميعاً، ألا وهي الافتقار إلى الله عز وجل والمتضمنة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(فاطر:١٥)، وبإشباع الإنسان لهذا الدافع، يكون قد أشبع حاجة فطرية جُبل عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٣٠)، وهذا الدافع الفطري للتدين موجود عند جميع الناس خلقة وجِبلة، قد يختلف الناس في إشباع هذا الدافع، فمنهم من يعبد الله تعالى الذي لا إله غيره، ومنهم من يعبد ما هم دونه.

المجموعة الثانية: الدوافع الفسيولوجية(الأولية)، وهي التي ترتبط بحاجات الجسم الفسيولوجية، وعدم إشباع هذه الدوافع يؤثر على أنسجة الجسم فيختل توازنها. وهذه الدوافع توجه الإنسان للقيام بسلوك يهدف إلى إشباعها وإلى إعادة التوازن إلى أنسجة الجسم. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الدوافع الأولية، ومنها:

أ – دوافع حفظ الذات، وهي متعددة نذكر منها: دافع الجوع والعطش وتجنب الحرارة والبرودة المفرطة، ودافع التعب، ودافع الراحة والنوم والتنفس...

ب – دوافع بقاء النوع:

وهي التي تدفع الإنسان للقيام بسلوك يتوقف عليه بقاء النوع الإنساني. وهذه الدوافع هي: الدافع الجنسي وهو دافع أساسي في تكوين الأسرة وبقاء النوع الإنساني، ودافع الأمومة وهو دافع فطري في طبيعة تكوين الأم يهيّئها للقيام برسالتها الهامة في الإنجاب لبقاء النوع، فهي تتحمل مشاق الحمل والولادة والرضاعة والرعاية حتى ينمو الطفل ويصبح قادراً على العناية بنفسه.

المجموعة الثالثة: الدوافع النفسية– الاجتماعية، ومنها: دافع العدوان، ودافع التنافس، ودافع التملك..

هذا وتختلف الدوافع فيما بينها شدةً وإلحاحاً واحتمالاً للإرجاء، فبينما نجد دافعاً كالجوع والعطش من أشد الدوافع إلحاحاً وقوة، ومن أعصاها على الإنسان تحملاً للإرجاء الطويل لإشباعه، نجد أن الدافع الجنسي من أكثر الدوافع طواعية لإرجاء إشباعه.

والإسلام ينظر "للحاجات المادية وغير المادية على أن لكل منها مشروعيته، ولكنه ينظر لإشباع كل الحاجات جميعها من منظور لا يتوقف عند حدود هذه الحياة الدنيا، بل يربط دوماً بين كل ما في الدنيا وبين الآخرة التي هي دار القرار، فيجعل إشباع الحاجات الدنيوية وسيلة طيبة للقيام بمهام العبودية لله تعالى ولا يجعل ذلك الإشباع غاية في ذاته"(٤٣).

الصراع بين الدوافع

كثيراً ما يقع الصراع النفسي لدى الإنسان بين دوافعه المتعلقة بإشباع حاجاته البدنية وشهواته الحسية ورغباته وطموحاته النفسية والاجتماعية من جهة، وبين دوافعه الدينية التي تحثه على السيطرة على دوافعه البدنية وشهواته الحسية من ناحية أخرى.

والله سبحانه الذي خلق بالإنسان هذه الدوافع التي تساعده على حفظ ذاته ونوعه وتحقيق ذاته، أمده أيضاً بالطريقة المثلى لحل الصراع النفسي الواقع بين دوافعه، وذلك بأن بين له الطريقة المثلى لإشباع تلك الدوافع، والتي تتسم بالتوازن، توازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسم. والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو للتوازن في إشباع الدوافع كثيرة، لا يتسع المجال لذكرها، ونكتفي بآية واحدة تدعو للتوازن في الإشباع، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَاللَّهُالدَّارَالْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَنَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَاوَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَاللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِالْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧).

د – الفروق الفردية:

أشار القرآن الكريم إلى الفروق بين الناس، كما في الآية الكريمة﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْخَلَائِفَالْأَرْضِوَرَفَعَبَعْضَكُمْفَوْقَبَعْضٍدَرَجَاتٍلِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَسَرِيعُالْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام:١٦٥)، وكما قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم):" إِنَّ الله تعالى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْض ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ"(٤٤)، فالناس يختلفون في الخلقة وفي السلوك أيضاً.

يصف أبو زيد البلخي– رحمه الله – الفروق الفردية بين الناس وصفاً دقيقاً بقوله:" على الإنسان أن يعرف بنية نفسه، ومبلغ ما عندها من الاحتمال للأمور الملحة عليه، فإن لكل إنسان قدراً من قوة القلب أو ضعفه وسعة الصدر أو ضيقه"(٤٥). وهو لا يتكلم هنا بالتأكيد عن الاحتمال في القوة الجسدية الظاهرة، وإنما يتكلم عن الخصائص والسمات والأخلاق، لذلك أضاف:" أنه إذا التزم

الإنسان هذه النصائح، طابت عيشته، ودامت راحته، وحصل الحظ الأوفر من سلامة نفسه، وحفظ عليها صحتها واستكمل بذلك سعادة الدنيا. والعكس يؤدي به إلى اجتلاب الأمراض النفسية إلى نفسه"[٤٦].

والناس خلقوا من نفس واحدة، والنوع الإنساني واحد، إلا أن الفروق بينهم ترجع إلى ما اكتسبوه فيما بعد، والنفسيات المكتسبة متعددة بتعدد الناس.

خاتمة

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وفضله على كثيرٍ من مخلوقاته، وكوَّنه من عناصر مختلفة الطبيعة والوظيفة، فالجسم له وظيفة يقوم بها وكذلك النفس والروح والعقل والقلب والشخصية، وإذا لم يقم أي مكون من مكونات الإنسان بوظيفته المطلوبة منه، أو قام بها منقوصة، فعندها يوصف هذا المكون بالمرض أو الاضطراب أو حتى بالموت. فعين الإنسان مثلاً وهي من مكونات جسده، وظيفتها أن ترى الأشياء، فإن اضطربت وظيفتها وُصفت بالمرض، وإن تعطل عملها نهائياً وُصفت بالموت.

وينسحب الأمر كذلك على المكونات الأخرى، فالعقل وهو آلة لإدراك العلم، إن قام بدوره واستخدم الأدلة اليقينية لبناء علومه كان في صحة وعافية، وإن اعتمد الظنون وهوى النفس كان مضطرباً، وإن لم يمنع صاحبه عن تعاطي ما يضره ، وينهاه عن القبائح، وُصف صاحبه بالجاهل.

ولا يعمل أي مكون من مكونات الإنسان منفرداً أبداً، وإنما تعمل جميع مكوناته مجتمعة متفاعلة فيما بينها. فحين يمرض الجسم بمرض عضوي تضطرب النفس والعكس صحيح، لهذا يرجع علماء الطب في العصر الحالي الكثير من الأمراض العضوية إلى أسباب نفسية، وهي الأمراض التي تسمى في علم الطب الأمراض الفسيولوجية، أو الأمراض الجسدية نفسية المنشأ مثل قرحة المعدة وأمراض القولون العصبي ومرض الشقيقة (الصداع النصفي) وغيرها.

لهذا كان لا بد لكل من يعمل مع الإنسان، إن كان في المجال التربوي أو الإرشادي أو الصحي وحتى السياسي والاقتصادي والاجتماعي... من معرفة هذه المكونات ومراعاة متطلباتها ووظيفتها عند وضع أي خطة إصلاحية في إطار عمله.

<u>الحواشـــي</u>

١) ابن قيم الجوزية، **الروح**، المنصورة، دار اليقين، ط١، ١٤٣٠/٢٠٠٩، ص٢٣٨.

٢) توفيق محمد عز الدين، **الآفاق التي يفتحها القرآن الكريم للبحث النفسي**، أبحاث ندوة علم النفس– القاهرة١٩٨٩، هرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٣/١٩٩٣، [٢٥–٥١]، ص٣١–٣٢.

٣) ابن قيم الجوزية، **المرجع السابق**، ص١٩١.

٤) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، بيروت–القاهرة، دار الشروق، ط١٢، ١٤١٤/١٩٩٤، ستة أجزاء، ج٦، ص٣٩١٧.

٥) ابن جرير الطبري، **تفسير الطبري**، دمشق، دار المعرفة، ١٩٩٠، ٣٠جزء، ج٣٠، ص٢١٠.

٦) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠، أربعة أجزاء، خطبة الحاجة، ج٢، حديث(٢٧٩٤)، ص١٩٨.

٧) ابن قيم الجوزية، **المرجع السابق**، ص٣٩٤.

٨) الترمذي، **سنن الترمذي**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٨، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة(١٣)، حديث(٢٩٨٨)، ص٦٩٣، وقال: هذا حديث حسن غريب.

٩) محمد لطفي الصباغ، **الإنسان في القرآن الكريم**، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٣/١٩٩٢، ص٢٧٤.

١٠)فخر الدين الرازي، **كتاب النفس والروح وشرح قواهما**، تحقيق: محمد المعصومي، إسلام آباد، مطبوعات معهد الأبحاث الإسلامية، د.ت، ص٢٧.

١١) ابن أبي العز الحنفي، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٨، ١٤٠٤/١٩٨٤، ص٣٩٨.

١٢) مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٥، ٢٠٠٨، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم(٥٠)، باب: سؤال اليهود النبيρ عن الروح(٤)، حديث(٢٧٩٤)، ص١٠٧٥.

١٣) النووي، **صحيح مسلم بشرح االنووي**، تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة، القاهرة، دار الشعب، د.ت، خمسة أجزاء، ج٥، ص٦٦٣.

١٤) ابن قيم الجوزية، **المرجع السابق**، ص ٢٤٢.

١٥) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: حسان الجبالي، الرياض، بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٤٢٠/١٩٩٩، ص١٨٠٤.

١٦) ابن قيم الجوزية، **المرجع السابق**، ص٢٤٦-٢٤٧.

١٧) ابن أبي العز الحنفي، **المرجع السابق**، ص٣٣٧.

١٨) عبد العزيز جادو، **أضواء على النفس البشرية**، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠١، ص١٦٢.

١٩) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد خليل عيتاني، بيروت، دار المعرفة، ط٥، ١٤٢٨/٢٠٠٧، ص٣٤٥.

٢٠) أبو الحسن بن محمد الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، بيروت، دار اقرأ، ط٤، ١٤٠٥/١٩٨٥، ص١٩-٢٢.

٢١) **المرجع نفسه**، ص٢٣.

٢٢) **المرجع نفسه**، ص٢٧.

٢٣) **المرجع نفسه**، ص٢٣-٣٣.

٢٤) ابن قيم الجوزية، **المرجع السابق** ، ص٣٦٢-٣٦٣.

٢٥) ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤١٢/١٩٩١، ٣٧ جزءاً، ج١٠، ص٩٣-٩٤.

٢٦) أنس كرزون، **أمراض النفس**، جدة، دار نور المكتبات، ط٤، ١٤٢٨/٢٠٠٧، ص١٩.

٢٧) البخاري، **صحيح البخاري**، دمشق – بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣/٢٠٠٢، كتاب: الإيمان(٢)، باب: فضل من استبرأ لدينه(٣٩)، حديث(٥٢)، ص٢٣-٢٤.

٢٨) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٥/٢٠٠٥، ص٩١١.

٢٩) الصالحي، كريمة، "**العلاقة الجدلية بين العقل والقلب**"، في(m3arej magazine.com)

٣٠) بيتر هوغتن (Peter Houghton)(١٩٣٨-٢٠٠٧)، أجريت له عملية زرع قلب صناعي عام ٢٠٠٠، بمستشفى أكسفورد ببريطانيا، أكبر المعمرين بعد عملية زراعة القلب الصناعي، وضع كتاب "the world within me" وصف فيه تأثير القلب الصناعي على عواطفه.

(٣١ Garreau,Joel, "**His Heart whirs Anew–Peter Houghton has a titanium tickers…**", in Washington post,12–8–2007.

(٣٢ Paul Pearsall(1942–2007**), The Heart's code**, Newyork, Broadway Books,1998.

(٣٣ **www.cumc.colombia.edu**.

(٣٤ **Heart Math.com**

٣٥)محمد محروس الشناوي، **بحوث في التوجيه الإسلامي للإرشاد والعلاج النفسي**، القاهرة، دار غريب، ط١، ٢٠٠١، ص٢٦.

٣٦)الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق: مؤسسة الرسالة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٢٤/٢٠٠٣، ص١١٢٤.

٣٧)نزار العاني، **الشخصية الإسلامية في الفكر الإسلامي**، بيروت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة بحوث علمية–إسلامية علم النفس ١٥، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥، ص٩٤.

٣٨) محمد عثمان نجاتي، **القرآن وعلم النفس**، القاهرة، دار الشروق، ط٨، ١٤٢٥/٢٠٠٥، ص٢٣٨–٢٣٩.

٣٩) الغزالي، **المرجع السابق**.

٤٠) ابن قيم الجوزية، **المرجع السابق**، ص٣٥٣.

٤١) **المرجع نفسه**، ص٣٨٣–٣٨٤.

٤٢) فرج عبد القادر طه وآخرون، **معجم علم النفس والتحليل النفسي**، بيروت، دار النهضة العربية، ط١، د.ت، ص١٩١.

٤٣) إبراهيم عبد الرحمن رجب،"**تشخيص المشكلات النفسية/الاجتماعية وعلاجها**"، في www.Ibrahimragab.com

٤٤) الترمذي، **المصدر السابق**، كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة البقرة(٣)، حديث(٢٩٥٥)، ص٦٨٧، وقال: حديث حسن صحيح.

٤٥) أبو زيد البلخي، **مصالح الأبدان والأنفس**، تحقيق: محمود مصري، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥، ص٥١٣.

٤٦) **المرجع نفسه**، ص٥١٣.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر والمراجع العربية

١) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(١٩٤–٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، دمشق – بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣/٢٠٠٢.

٢) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (٢٠٩–٢٩٧هـ)، **سنن الترمذي**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٨.

٣) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (٦٦١–٧٢٨/١٢٦٣–١٣٢٨)، **مجموعة الفتاوى**، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤١٢/١٩٩١، ٣٧ جزءاً.

٤) جادو، عبد العزيز، **أضواء على النفس البشرية**، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠١.

٥) الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٣٢١-٤٠٥هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠، أربعة أجزاء.

٦) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين (٥٤٣-٦٠٦هـ)، **كتاب النفس والروح وشرح قواهما**، تحقيق: محمد المعصومي، إسلام آباد، مطبوعات معهد الأبحاث الإسلامية، د.ت.

٧) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد(-٥٠٢/١١٠٥)، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد خليل عيتاني، بيروت، دار المعرفة، ط٥، ١٤٢٨/٢٠٠٧.

٨) أبو زيد البلخي، أحمد بن سهل (٢٣٥-٣٢٢/٨٤٩-٩٤٣)، **مصالح الأبدان والأنفس**، تحقيق: محمود مصري، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥.

٩) الشناوي، محمد محروس ، **بحوث في التوجيه الإسلامي للإرشاد والعلاج النفسي**، القاهرة، دار غريب، ط١، ٢٠٠١.

١٠) الصباغ، محمد لطفي، **الإنسان في القرآن الكريم**، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٣/١٩٩٢.

١١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(٢٢٤-٣١٠هـ)، **تفسير الطبري**، دمشق، دار المعرفة، ١٩٩٠، ٣٠جزء.

١٢) طه، فرج عبد القادر وآخرون، **معجم علم النفس والتحليل النفسي**، بيروت، دار النهضة العربية، ط١، د.ت.

١٣) العاني، نزار، **الشخصية الإسلامية في الفكر الإسلامي**، بيروت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة بحوث علمية-إسلامية علم النفس ١٥، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥.

١٤) ابن أبي العز الحنفي، محمد بن علي(٧٣١-٧٩٢هـ)، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٨، ١٤٠٤/١٩٨٤.

١٥) عز الدين، توفيق محمد، **الآفاق التي يفتحها القرآن الكريم للبحث النفسي**، أبحاث ندوة علم النفس- القاهرة١٩٨٩، هرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٣/١٩٩٣، [٢٥-٥١].

١٦) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (٤٥٠-٥٠٥/١٠٥٨-١١١١)، **إحياء علوم الدين**، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٥/٢٠٠٥.

١٧) الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب(٧٢٩-٨١٧هـ)، **القاموس المحيط**، تحقيق: مؤسسة الرسالة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٢٤/٢٠٠٣.

١٨) قطب، سيد(١٩٠٦-١٩٦٧)، **في ظلال القرآن**، بيروت-القاهرة، دار الشروق، ط١٢، ١٤١٤/١٩٩٤، ستة أجزاء.

١٩) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(٦٩١-٧٥١/١٢٩٢-١٣٥٠)، **الروح**، المنصورة، دار اليقين، ط١، ١٤٣٠/٢٠٠٩.

٢٠) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(٧٠١-٧٤٤/١٣٠٢-١٣٧٣)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: حسان الجبالي، الرياض، بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٤٢٠/١٩٩٩.

٢١) كرزون، أنس، **أمراض النفس**، جدة، دار نور المكتبات، ط٤، ١٤٢٨/٢٠٠٧.

٢٢) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (٣٦٤-٤٥٠/٩٧٤-١٠٥٨)، **أدب الدنيا والدين**، بيروت، دار اقرأ، ط٤، ١٤٠٥/١٩٨٥.

٢٣) مسلم بن الحجاج القشيري، أبو الحسين (٢٠٤-٢٦١هـ)، **صحيح مسلم**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٥، ٢٠٠٨.

٢٤) نجاتي، محمد عثمان ، **القرآن وعلم النفس**، القاهرة، دار الشروق، ط٨، ١٤٢٥/٢٠٠٥.

٢٥) النووي، أبو زكريا يحي بن شرف (٦٣١-٦٧٦/١٢٣٣-١٢٧٧)، **صحيح مسلم بشرح االنووي**، تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة، القاهرة، دار الشعب، د.ت، خمسة أجزاء.

المراجع الأجنبية:

١) Garreau,Joel, "**His Heart whirs Anew-Peter Houghton has a titanium tickers...**", in Washington post,12-8-2007.

٢) Paul Pearsall(1942-2007)**, The Heart's code**, Newyork, Broadway Books,1998.

المواقع الالكترونية:

١) رجب، إبراهيم عبد الرحمن،"**تشخيص المشكلات النفسية/الاجتماعية وعلاجها**"، في www.Ibrahimragab.com

٢) الصالحي، كريمة، "**العلاقة الجدلية بين العقل والقلب**"، في(m3arej magazine.com)

٣) **www.cumc.colombia.edu.**

٤) **Heart Math.com**